

## معرفة الله في كتابات القديس مكسيموس المعترف

إيريني أرتامي وخريستوس تارازيس

نقلتها إلى العربية اسرة التراث الأرثوذكسي

يستعمل مكسيموس المعترف عبارة "معرفة (gnosis)" مرات كثيرة في كتاباته. في غالبية هذه المرات تحمل الكلمة معنى معرفة الله، أو المعرفة عن الله، أو المعرفة الإلهية. هو يشرح أن فهم الوجود الإلهي يمكن معالجته من خلال نعمة الله التي تنير ذهن المؤمن. يمكن للذهن الصافي أن يستوعب الحقيقة الإلهية [٦٤]. هذا النور الذي هو نور تجلي الرب ينتمي إلى اللاهوت الصوفي إيجابياً، إذ هو يبقى غير مقيّد في المكان وغير مدرك بالحواس [٦٥]. يحتاج العقل إلى إعدادٍ لتقبّل نور الطبيعة الإلهية. هذا الوضوح في الفكر له علاقة بالفضائل. يحاول المؤمن تبني فضائل الطبيعة البشرية أو ممارستها والتخلي عن الأهواء. وهذا له أجر في السعي إلى الاتحاد بالله. مكافأة ضبط النفس هو اللاهوى، ومكافأة الإيمان المعرفة الروحية. اللاهوى يولّد التمييز، والمعرفة الروحية تولّد محبة الله [٦٦]. هذه تساعد الإنسان على توضيح قوته العقلية وتحصيل النظرة الصحيحة، و"معينة" الكائنات والحقائق [٦٧]. هذا النوع من الإدراك يميّز المعرفة النسبية أو الطبيعية والمعرفة الحقيقية أو الخارقة للطبيعة.

الكتاب المقدس هو مصدر مهم لمعرفة الله. الله يكشف لنا عن نفسه بصفته صانعنا، وحافظنا، وحاكمنا، وقاضينا، وواضع ناموسنا ومخلصنا. إنه نبع الحياة على الأرض ومصدر الحياة الأبدية. يعلن الله عن نفسه كالأب والابن والروح القدس. لذلك، يمكننا أن نعرفه من خلال خليقته: أنفسنا والطبيعة وكل الخليقة. كل هذا يمكننا ملاحظته. يخبرنا الرسول بولس، "لأنّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمُنظُورَةِ ثُرِيَ مُنْذُ خُلِقِ الْعَالَمُ مُدْرَكَةً بِالْمَضُوعَاتِ، قُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةُ وَالْأَهْوَتْهُ" [٦٨].

يعلّمنا الكتاب المقدس طريقتين لمعرفة الله، نوعين من معرفة الأشياء الإلهية. أحدهما هو المعرفة النسبية التي لها دعائم العقل البشري والأفكار والمفاهيم [٦٩]؛ والآخر هو المعرفة الحقيقية الأصلية. هذا "يتم اكتسابه فقط بالخبرة الفعلية، بمعزلٍ عن العقل والأفكار البشرية وبما يسمو عليها. هذه المعرفة التجريبية الأصلية تعطينا إدراكاً مباشراً لله من خلال الاشتراك في حياته بالنعمة" [٧٠].

\*\*\*إلى ذلك، يمكن القول أن هناك طريقة أخرى لمعرفة الله يمكن أن تقوم على منطلق الإنسان، وهي المعرفة العقلانية. تستخدم معرفة الله العقلانية هذه تشابهات مع الكائنات المخلوقة في التأمل العقلي بالله. وبالمثل، فإن "المعرفة المفاهيمية" تعني كل معرفة الله البسيطة المستمدة من الكائنات المخلوقة. علاوة على ذلك، فإن معرفة الله لا تعني أن تعرف عنه، بل الاتحاد به، وللاتحاد به يجب أن يكون الإنسان على مثاله. لكن الله غير محدود بينما من الواضح أن البشر محدودون. لهذا فإن "الإدراك المباشر" يتضمن الخبرة الفعلية، من خلال الاشتراك في صفات الله الفائقة للطبيعة [٧١].

بالنسبة إلى مكسيموس، تُستخدم معرفة الله في ما يتعلق بالتجسد. الله وحده هو الذي يجعل نفسه معروفاً، كما يفعل في شخص ابنه المتجسد بيننا [٧٢]. إن الإيمان هو عطية مجانية من الله. أيضاً، يرد في عمل مكسيموس المعترف، "فصول في المعرفة" أن الله "غير مفهوم" و "لا يمكن تمييزه من قبل أي كائن على أساس أي بيان طبيعي" [٧٣]. يبدأ هذا سرداً تنزيهياً طويلاً لما هو ليس الله "على حسب قدرتنا على معرفة" ما ليس هو [٧٤]. إذن، يفهم مكسيموس أن معرفة الله ممكنة. ويشدد على أن المعرفة الأسمى هي "جهل سام بالمجهول الأسمى". الله هو المتعالي وغير المفهوم بالكلية والذي يتجاوز كل الصور والمفاهيم بشكل كامل. من جهة الله، المعرفة العقلانية غير ملائمة. يجب أن تُكفّل بإعلان خارق للطبيعة يتحقق في يسوع المسيح وعطية عنصرة الروح القدس. لأن الله لا معروف إلى حد معين فقط من أعماله [٧٥]. تبقى معرفة ذاته في جوهره وشخصيته غير متاحة لجميع الملائكة والبشر على حد سواء، ولا يمكن أن يُعرف من أي شخص بأي حال من الأحوال [٧٦].

يكشف الله نفسه كثالوث. إن إعلان المطلق الذي هو في نفس الوقت "جوهر واحد أو جوهر وثلاثة أقانيم أو أشخاص" [٧٧]. هناك إله واحد لأن هناك ألوهة واحدة، وحدة غير منشأة، بسيطة، فوق الوجود، بلا أجزاء وغير منقسمة. الوحدة نفسها هي ثالوث، وهو أيضاً غير منشأ وبسيط وما إلى ذلك [٧٨]. ويلاحظ فلاديمير لوسكي: "يكشف اللامعقول عن نفسه في حقيقة كونه غير مفهوم، لأن سموه راسخ بقوة في حقيقة أن الله في نفس الوقت "واحد وثالوث" [٧٩].

في فكر مكسيموس، يمكن للعقل البشري أن يفهم الله فقط بارتقائه. وبهذه الطريقة، فإنه يعالج اتحاده مع الله الفائق لمعرفة البشر في رؤية لله عارفة وجاهلة في نفس الوقت. يحلل ياب دوران كتابات مكسيموس ويؤيد ما يلي: "العقل مدفوع بالحكمة يأتي إلى التأمل وبالتأمل إلى المعرفة، وبالمعرفة إلى المعرفة التي لا تنقطع وبهذه المعرفة المستمرة إلى الحقيقة التي هي الله" [٨٠].

بشكل عام، من خلال خلق الله، يعرف الإنسان أنه موجود. من خلال الكتاب المقدس يعرف الإنسان ما هو شكل الله. من خلال الابن يمكن أن تكون له علاقة شخصية مع الله.

طريقة أخرى يقدمها مكسيموس للتعرف على الله هي المشاركة في الحياة الليتورجية. هناك، يمنح الثالوث الأقدس للمؤمنين رؤيا الأسرار السماوية. يمكن للمسيحي أن يدخل إلى أعماق سر الله الذي لا يمكن اختراقه [٨١]. في الليتورجيا وفي القداس الإلهي، يتخطى الإنسان شركة الثالوث الداخلية ويبتعد مع الله. للمؤمن في الكنيسة امتياز الاتحاد مع الله لكي يعرف الله. تتنوّج معرفة الله هذه والاتحاد به في شركة الأسرار المباركة المحيية.

كما يقول القديس مكسيموس، بالمناولة المقدسة، يدعى الإنسان أنه إله بالنعمة. وهذا يعني أن الليتورجيا تقود الإنسان إلى طريق التأله، أي إعلاء الوحدة والتماهي النهائيين مع الله [٨٢]. كما هو موضح أعلاه، بحسب فكر مكسيموس هذا أنه أثناء القداس الإلهي يتبع المؤمنون طريقاً روحياً للتلقّن والارتقاء من غير الكامل إلى الكامل، ومن الأرض إلى السما، ومن الإنسان إلى الحالة الملائكية، وفي النهاية إلى الله. من خلال معرفة

تعاليم الرب (الإنجيل)، والمشاركة مع الملائكة من أجل تمجيد الله (التمجيد الثالوثي)، والوعي بفوائد الله للبشر (الدخول الكبير - دستور الإيمان)، يتخلى الإنسان عن "روح الأرض"، ويدرك تبني الله ويحقق الاتحاد معه (المنالوة المقدسة) ويستحوذ على معرفة الله، أي قواه.

للتلخيص، إن تعليم مكسيموس المتعلق بمعرفة الإنسان لله هو تآزر بين المخلوق والخالق. يحصل الإنسان على معرفة الله الطبيعية وفوق الطبيعية، بسبب إعلان الله الطبيعي والفائق للطبيعة. إن نوره المقدس غير المخلوق يجعل العقل البشري خصباً لقبول بذرة المعرفة المقدسة. يمكن الكشف عن معرفة الله الطبيعية برؤية الخليقة أي الكون. هذا الظهور العام لله - سواء تم الاعتراف به على هذا النحو أم لا - في الطبيعة ومن خلالها، يتميز عن إعلانه الخاص في المسيح المتجسد والكتاب المقدس الموحى به. تُكشَف المعرفة الخارقة للطبيعة من خلال تجسد المسيح. ومع ذلك، تلك المعرفة لله قاتمة أو غير مكتملة ويمكن للبشرية الوصول إليها عن طريق الإعلان الطبيعي، وبصرف النظر عن الإعلان الخاص. يربط مكسيموس معرفة الله بالقداس الإلهي والمنالوة المقدسة. في الكنيسة، الروح القدس يساعد المؤمن على "معاينة" الله و"معرفة" الله. بدون مساهمته لا يمكن للناس أن يتوصلوا إلى معرفة الله، ولكن فقط بالروح (القدس). أخيراً، يجادل مكسيموس بأن معاينة الله، وتأله المؤمن، واتحاد الإنسان بالله ومعرفته له مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً. كل هذه لا يمكن فهمها على أنها أجزاء متميزة. إن كسر هذه الوحدة يأخذ الإنسان بعيداً عن معرفة الله [٨٣].

\* هذا المقال هو الجزء الرابع من:

Eirini Artemi & Christos Terezis (2019). The mystical theology as a path of man for the divine Knowledge in the writings of Gregory of Nyssa, Dionysius Areopagite, and Maximus the Confessor. De Medio Aevo. 13, 2019. 153-176.

الجزء الأول: اللاهوت الصوفي في المسيحية الشرقية

الجزء الثاني: معرفة الله في كتابات القديس غريغوريوس النيصي

الجزء الثالث: معرفة الله في كتابات ديونيسيوس الأريوباغيتي

62 Dionysius the Areopagite, De Ecclesiastica Hierarchia, 8, PG 3, 412BC, trans. Colm Luibheid and Paul Rorem, New York, NY: Paulist Press, 1987.

63 VI. Lossky, The mystical theology of the Eastern Church, Crestwood -New York: St Vladimir's Seminary Press, 1994, p. 33

64 Maximus the Confessor, Capita de Charitate, 4, 4, PG 90, 1051-1054; 3, 99, PG 90, 1045-1046, trans. by G. Eustace, H. Palmer, Ph. Sherrard, and K. Ware.

65 Maximus the Confessor, Ambiguum Liber, 10, PG 91, 1168A, transl. by E. Artemi.Artemi, E. & Terezis, Ch. De Medio Aevo 13, 2019. 153-176

66 Maximus the Confessor, Capita de Charitate, Text from Gerald Eustace Howell Palmer, Philip Sherrard, and Kallistos Ware, trans. and eds, The Philokalia: The Complete Text, vol. 2, (London & Boston: Faber & Faber, 1979), 68-69.

67 Maximus the Confessor, Capita de Charitate, 1, 79, PG 90, 977C; 1, 87, PG 90, 980C; 2, 76, PG 90, 1008CD; 3, 1, PG 90, 1017B; 3 37, PG 90, 1097C, trans. by G. Eustace, H. Palmer, Ph. Sherrard, and K. Ware. Maximus the Confessor, Letter 2, PG 91, 392-408, in the On Love in Andrew Louth, Maximus the Confessor, Routledge 1996, p. 85.

68 Rom. 1:20, trans. in New International Version.

- 69 Maximus the Confessor, *Ad Thalassium*, 60, PG 90, 621CD, transl. by Paul Blowers and Robert Wilken, St. Vladimir's Press, 2003.
- 70 Maximus the Confessor, *Ad Thalassium*, 60, PG 90, 621CD, transl. by Paul Blowers and Robert Wilken, St. Vladimir's Press, 2003.
- 71 Maximus the Confessor, *Capita de Charitate*, 3, 2, PG 90, 1017B ; 2, 21, PG 90, 992A; 2, 95, PG 90, 1016C, trans. by G. Eustace, H. Palmer, Ph. Sherrard, and K. Ware.
- 72 Jn 1:18 trans. in New International Version: "If it was for us that the Word of God in His incarnation descended into the lower parts of the earth and ascended above all the heavens; while being Himself perfectly unmoved, he underwent in Himself through the incarnation as man our future destiny. Let the one who is moved by a love of knowledge mystically rejoice in learning of the great destiny which He has promised to those who love the Lord", Maximus the Confessor, *Capita Ducenta. Ad theologiam Deique Filii in carne dispensationem spectantia*, 2, 24, PG 90, 1136B, trans. G.E.H. Palmer, Philip Sherrard, and Kallistos Ware.
- 73 Maximus the Confessor, *Capita Ducenta*. 1, 1, PG 90, 1084, trans. G.E.H. Palmer, Philip Sherrard, and Kallistos Ware.
- 74 Maximus the Confessor, *Capita Ducenta*. 1, 2, PG 90, 1084A, trans. G.E.H. Palmer, Philip Sherrard, and Kallistos Ware.
- 75 "We do not know God from His essence. We know Him rather from the grandeur of His creation and from His providential care for all creatures. For through these, as though they were mirrors, we may attain insight into His infinite goodness, wisdom and power". Maximus the Confessor, *Capita de Charitate*, 1, 96, PG 91, 981C.
- 76 Maximus the Confessor, *Capita Theologica et Oeconomica*, 1, 76, PG 90, 1212A.
- 77 *Ibidem*, 2, 1; PG 90, 1224AB.
- 78 Maximus the Confessor, *Various Texts on Theology, the Divine Economy, and Virtue and Vice, First Century*, 1-6, 164-165.
- 79 VI. Lossky, *The mystical theology of the Eastern Church*, Crestwood -New York: St Vladimir's Seminary Press, 1994, p.69.
- 80 J. Durand, *The Many Faces of God. Highways and byways on the route towards an orthodox image of God in the history of Christianity from the first to the seventeenth century*, Stellenbosch: Sun Press, 2007, p. 56.
- 81 Maximus the Confessor, *Mystagogia* 16, PG 91, 693CD.
- 82 *ibidem*.
- 83 *ibidem*